

العقيدة والرأي

يحيى محمد

من الامور البديهية علاقة الارتباط بين العقل والنفس لدى الانسان، فاحدهما يؤثر في الآخر. واذا كانت وظيفة العقل هي الادراك المعرفي، فان من اهم وظائف النفس: الميول المزاجية والرغبات العاطفية. وعندما تختلط الامور العقلية بالنفسية تصبح الوظيفة لديهما متحدة، فاما ان تخضع الميول والرغبات الى العقل والمعرفة، او العكس، وهو الغالب لدى الناس. وبسبب الميول النفسية قد تتحول المعرفة الى عقائد جامدة فتصبح حجاباً للعلم. فالمعرفة التي يدافع عنها ويدفع عنها الشبهات ولا تخضع للشك ولا البحث والتحقيق هي تلك التي تتصف بالعقيدة، خلافاً لغيرها التي تقبل الشك والبحث والتحقيق، فهي تنطوي تحت جناح الرأي ولا تدخل ضمن نطاق الاولى.

وحيث ان للانسان خلفياته وقبليات معرفية، فهي ان لم تكن موضوعية او بديهية فإنها قد تترشح لتصبح عقائد يتناغم معها الفرد بعواطفه واحاسيسه الوجدانية، فتمنع من نفاذ العلم والمعرفة الصحيحة. وكثيراً ما يتولد هذا الحال في المراحل الاولى للبلوغ العقلي للفرد، اذ يتربى على نمط محدد من المعارف، كالنمط المذهبي، بفعل ما تمارسه الاسرة والخطيب - وحتى الكتاب المنمط - من تأثير في ذهن الفرد وميوله النفسية، فتتولد على اثر ذلك عقائد وموانع قوية يصعب اختراقها، رغم ان اصلها قد يكون في غاية الضحالة لغياب الدقة وكثرة التدليس؛ كتلك التي يمارسها الخطباء والكتاب المنمطون عادة. وبذلك يعظم الاثر النفسي في التشكل العقائدي مقارنة بالاثار المعرفي، رغم امتزاجهما معاً، وهو ما يجعل العقيدة كنتاج سايكولوجي محدداً للذهن وادواته المنهجية، خاصة وان العواطف النفسية في الصغر تسيطر على الفرد اكثر مما تسيطر عليه الميول العقلية والمنطقية. وهو ما يجعل الادراكات المشحونة بالاثار النفسي مترسبة فتكون مرجعاً للرفض والقبول واداة للتنقية او (الفلتر)، اذ يخضع كل معطى ادراكي لاحق او جديد الى فحص هذه الاداة، بوعي وبغير وعي، فتقبل المعطيات التي تتفق معها، وترفض ما سواها، او تعمل على تأويلها. فهي مسلمات او عقائد يصعب تجاوزها او هدمها، كما انها تشكل قبليات ذاتية في الفهم الديني، سواء كان هذا الفهم منضبطاً او غير منضبط.

وقد يزداد الطين بلة عندما تُوظف العقائد لأغراض الجذب والدفع الايديولوجي، فيُغالى فيها لجذب الاتباع، او للرد على الخصوم المفترضين، وهي ما تخلق حالة قد تتطلع فيها النفوس الى تمني المزيد من المغالات حتى ولو كانت على حساب المحبوب المغالى فيه.. فيا لها من مفارقة!! ولعل الشاهد في ذلك ما يجري لدى المجالس الحسينية التقليدية عندما يتناول الخطباء مأساة كربلاء، فهم عادة ما ينتقون أفسى صور المأساة من بين الروايات المنقولة ويعتبرونها

حقائق دون ان يتقبلوا التحقيق فيها. ووفقاً للتحليل السايكولوجي للعقل الباطن انهم يتمنون اشد حالات المأساة واروعها عذاباً؛ ليكون الاثر النفسي والعقائدي لدى السامع ابلغ واعظم. وهنا المفارقة بين الحب وتمنيات العذاب الاشد للمحبوب. ومثل ذلك عند تعرض الخطيب - او الكاتب - التقليدي المغالي لذكرى وفاة فاطمة الزهراء (ع)، فنكالا بالآخر تكاد المأساة التي يفترضها للمحبوب تدعو للبحث والقول: هل من مزيد؟!

لذلك نطلق على هذه الحالة بالمفارقة النفسية للعقيدة.

وللحالات النفسية والاجتماعية دور في التأثير على العلم الطبيعي، وان هناك صعوبة للتخلي عن الخطأ المعتاد ولو كانت ابسط الحقائق معلومة ضد هذا الخطأ، كالذي يشير اليه البعض^[1]. كما وان تصورات العلماء إزاء العالم الخارجي متباينة، ولا وجود لموضوعية مطلقة، فقد يكون الاختيار وسط النظريات المتنافسة قائماً بعض الشيء على الرغبات الذاتية، حتى أن فيلسوف العلم فيرابند يبالغ في ذلك فيقول: «ما يبقى بعد اقضاء امكانية المقارنة منطقياً بين النظريات.. هو الاحكام الجمالية، احكام الذوق، الاحكام المسبقة الميتافيزيقية، والرغبات الدينية. وباختصار إن ما يبقى بعد ذلك هو رغباتنا الذاتية»^[2]. ويشاطره في ذلك الفلكي البريطاني فريد هويل: إن لمن الغريب حقاً ان في الوقت الذي يطالب فيه معظم العلماء بتجنب الدين - كما ظنن - لكنه في حقيقة الأمر يهيمن على أفكارهم أكثر مما يهيمن على أفكار رجال الدين^[3].

كما قد تحصل حالات مما يعرف بالتعصب العلمي، ومن ذلك انه مرت خمسون سنة دون تقبل الكيميائيين للآراء الاساسية التي بنيت عليها النظرية الذرية بفعل التعصب الفكري بداية القرن التاسع عشر^[4]. ومثل ذلك ما حصل في رفض الانجليز لأي نظرية تخالف مذهب نيوتن في الضوء واتهامها بتهم متعصبة باعتباره منهم. فقد قوبل يونغ في اثباته لموجية الضوء بالسخرية والاستنكار باعتباره تجراً على معارضة نظرية نيوتن الجسيمية. وكانت المؤسسة العلمية في بريطانيا تنظر الى اي معارضة لا فكار نيوتن بأنها «هرطقة تقريباً، وبالقطع عمل غير وطني»^[5]. وقد كتب الهاوي العلمي السياسي البريطاني هنري بروغام في مجلة ايدنبرغ (عام 1803) بان ورقة يونغ لا تستحق شيئاً، ونحن نريد ان نرفع صوتنا استنكاراً لهذه البدعة التي لا يمكن الا ان تعيق تقدم العلم وتبعث كل تلك الاشباح الوحشية للتهيئات التي طردها نيوتن من معبد العلم^[6]. وعلى نفس الشاكلة ظهر شعور وطني بريطاني وراء رفض نظرية التضخم الكوني لجوثر^[7].

ومبدئياً يتأثر النتاج المعرفي تارة بفعل العقل او الذهن المحض مثل القضايا الرياضية، واخرى بفعل النفس كحالات الالفة المعرفية والتقليد التي ينشأ عليها الفرد منذ الصغر، وثالثة بامتزاجهما معاً ضمن مراتب متباينة من التغالب، وهي الحالة الاكثر تأثيراً في البشر، وان التحقيق العلمي الخالص لهذا النتاج لا يكون الا بتجريد العقل عن الفاعلية النفسية التي تتولد عنها العقائد المغلقة. وبعبارة ثانية ان المعرفة اما عقلية او نفسية، ولا قيمة للحالة الاخيرة من حيث التحقيق، بل انها تشكل عائقاً ابستيمياً للكشف الموضوعي، كما وتشكل سبباً قوياً

لتكوين العقائد المغلقة، وتحويل الرأي الى عقيدة. فغالباً ما تكون العقيدة نتاج المعرفة النفسية لا العقلية، حتى وان تم ذلك بفعل التمازج بينهما كما يكثر لدى العلماء. فاليقين المتولد بفعل العقائد هو يقين نفسي ذاتي وليس يقيناً موضوعياً.

على ذلك ليس من الممكن التخلص من تلك السدود المانعة ما لم نتمسك بمنهج الشك وتفعيل القبلات المنطقية المحايدة والكاشفة، واختبار ما هو عقيدة وتحويله الى مجرد رأي قدر الإمكان، وهو ما يخفف اثر الصدمة النفسية فيما لو انكشف بطلان العقيدة وخطئها، او حتى التشكيك فيها كالذي مر به الغزالي ضمن تجربته الذاتية التي ادت به الى السلوك العرفاني. فالتناسب بين العقيدة والصدمة هو تناسب طردي، كلما كانت الاولى قوية ومستحكمة كلما افضى انكشاف الخطأ فيها الى تضاعف الصدمة والاحباط او الكآبة والحزن العميق، خلافاً لما يحصل في حالة انكشاف الخطأ في الرأي.

واذا كان اليقين العقائدي هو من النوع السايكولوجي الناشئ منذ البلوغ، فقد يتعرض لمحن عاصفة من الشك عندما يصطدم بالمعارضات العقلية والالوان المعرفية المختلفة لدى الممارسة المعرفية. ففي هذه الحالة ان من يبدأ باليقين ينتهي الى الشك، ومن ثم الصدمة والاحباط. ولفرانسيس بيكون كلمة قريبة من هذا المعنى، فهو يقول: «اذا بدأ الانسان باليقين فانه ينتهي قطعاً بالشك، اما اذا اكتفى بان يبدأ بالشك فانه ينتهي قطعاً باليقين»^[8].

وعلى العموم قد تكون القضايا المنكشفة حجاباً للعلم ان لم تكن من البديهيات، فقد تتحول الى عقيدة يصعب زوالها طالما تنفذ من دون وجود ما يعارضها ولا التشكيك فيها. ولأجل تحويلها الى رأي او ازالتها لا بد من الاستعانة بجهاز الكشف القبلي ذي الخاصية الصورية المنضبطة، ومن ثم النظر الى كافة ما يرد من اراء وعقائد بنظرة الشك والتحقيق.

فمع أنه من الناحية المبدئية او المنطقية، ينبغي ان تتأسس العقيدة على الفكر، ويتحول الفكر الى عقيدة، لكن ما نشاهده واقعاً عكس ذلك في الغالب. اذ تكون العقيدة نتاج تجربة عملية او نفسية يتأسس عليها الفكر فتكون حجاباً للعلم والحقيقة، او تمنع بذلك ما يسمى الفطرة الثانية، ولا يستثنى من هذا الأمر ما يُعرف بالعلماء لدى مختلف الاختصاصات، وعلى رأسهم - بالطبع - علماء الدين.

فمثلاً ينقسم الفكر الديني الى مجرد رأي وعقيدة، وتتألف هذه الأخيرة من جماع الرأي وما يرتبط به من إحساس وجداني وعاطفي قوي، وهو ما يشكل أساس التجربة الدينية، فتكون العقيدة ليست مجرد رأي ولا أنها تجربة فحسب، بل مزيج مركب من الأمرين معاً. وقد تكون التجربة الدينية ابداعية كما هو الحال مع تجارب الأنبياء والأولياء، لكن الغالب فيها هو الإلتباع؛ كالذي يتمثل بتجارب الناس. واذا كانت التجربة من الصنف الأول لا تقوم على الرأي، بل تقع في موازاة له، فإن الثانية ترتبط بالرأي ارتباطاً صميماً، لكن المشكلة أنها غالباً ما تكون أساس الفكر لا العكس، لذلك ينشأ التعصب والدوغمائية وغياب الأساس الفكري المتين، اذ لا يصبح

للفكر وظيفة سوى تبرير التجربة الدينية المسلم بها سلفاً، وهو ما يقع ضمن منطق الدفاع عن النزعات الذاتية او القبلية غير المنضبطة.

وعليه يصبح من الواجب منطقياً تصحيح الصورة والقيام بقلبها رأساً على عقب، أي تفرغ العقيدة من محتواها النفسي وتحويلها الى مجرد رأي. والغرض من ذلك ليس نسف العقائد باطلاق، لكن تناقض هذه العقائد وتضاربها يفرض علينا العمل على تقليصها الى أقصى حد ممكن، ولا يتم ذلك الا بممارسة النقد الذاتي، وانتهاج منهج الشك، مع تفعيل دور القبلية الكاشفة في البحث العلمي.

[1] جايمس غليك: نظرية الفوضى.

[2] الآن شالمرز: نظريات العلم.

[3] بول ديفيز: التدبير الالهي.

[4] جيمس كونانت: مواقف حاسمة في تاريخ العلم.

[5] جون جريبين: البحث عن قطة شرودنجر.

[6] فريد الآن وولف: مع القفزة الكمومية.

[7] جواو ماكيويجو: أسرع من سرعة الضوء.

[8] لويد موتز وجيفرسون هين ويفر: قصة الفيزياء.